جغرافيات الإمبريالية و النقدية

دانيال كلايتون

ترجمة بتصرف
أ.د. مشر خليل عمر

يتناول هذا الفصل افتتان الجغرافيين الحالي بالماضي الإمبريالي / الاستعماري وتتبع تأثير ما بعد الاستعمار على حساسياتهم التفسيرية . على مدى السنوات العشر الماضية كان هناك انفجار في الاهتمام بالروابط بين الجغرافيا والإمبراطورية . أصبح الجغرافيون مهتمين بعلم الأنساب الإمبراطوري لتخصصهم ، والمكانية للاستعمار والإمبراطورية ، وكيف يمكننا إعادة النظر في الجغرافيات الإمبريالية والاستعمارية من منظور ما بعد الاستعمار . سعى البعض إلى تقييم الطرق التي عملت بها الجغرافيا كتخصص وخطاب إمبراطوري ، واستخدموا نتائجهم لتعددية وتسييس فهم ما أسماه ديفيد ليفينغستون (1992) "التقليد الجغرافي" . وقد لفت انتباه النقاد الأدوار الإمبراطورية التي لعبها منتجون ومحكمون متنوعون للمعرفة الجغرافية (المستكشفون ، وعلماء الطبيعة ، ورسامو الخرائط ، والمساحون ، والمصورون ، والجمعيات الجغرافية ، والجغرافيون المحترفون ، وما إلى ذلك) ، وإلى المراسي الأوروبية المركزية للجغرافيا (ينظر درايفر، 1995).

وطرح آخرون أسئلة أكثر عمومية حول جغرافيات الاستعمار والإمبراطورية . وهناك أدبيات سريعة النمو حول كيفية تشكيل الإمبريالية من خلال التشكيلات المكانية للمعرفة والقوة ، وكيف تم استثمار الإمبراطورية بالمعنى الجغرافي من خلال وسائل ثقافية متنوعة (مثل سرديات السفر والمتاحف والمناهج المدرسية) وكيف تم ربط الإمبريالية باختلاق خيالات مكانية خبيثة مثل المشرق ، و"أفريقيا الأكثر ظلمة" والمناطق الاستوائية (ينظر درايفر ويوه، 2000؛ دنكان وجريجوري، 1999؛ جريجوري، 2000ب). ولقد تناول آخرون الجغرافيا الاستعمارية والتوسع المستمر للقوة الاستعمارية في مختلف أنحاء العالم بشكل أكثر وضوحًا . وهناك مجموعة من الأعمال تناولت إنتاج وتمثيل الفضاء الاستعماري ، وكيف تم بناء الفضاءات الاستعمارية حول محاور الطبقة والعرق والجنس والدين ، وكيف أثرت البيئات الطبيعية المختلفة والشعوب الأصلية (أو الطبيعة والثقافات) على المشاريع واللقاءات الاستعمارية (ينظرButzer ، 1992؛Kenny ، 1999).

كما عبرت بعض هذه الأدبيات عن قلق قوي ما بعد الاستعمار بشأن الكيفية التي قد يدعم بها الجغرافيون النضالات المناهضة للاستعمار الحالية وعمليات إنهاء الاستعمار (ينظرHowitt ، 2001) لقد أصبح البحث الجغرافي حول القضايا الإمبريالية / الاستعمار شائعًا جدًا في الجغرافيا الأنجلوأمريكية ، ولكنه أقل بروزًا في البلدان غير الناطقة باللغة الإنجليزية (على الرغم من أن Bruneau and Dory, 1994; Claval, 1998; Lejeune, 1993; Siliberto, 1998). وبينما لا يفترض الجغرافيون بالضرورة أن جميع الإمبراطوريات كانت أو ما تزال غربية ، فإن عملهم في الجغرافيا والإمبراطورية يتعامل بشكل حصري تقريبًا مع تاريخ وعواقب الاستعمار الغربي الحديث .

وهناك أيضًا تركيز كبير على القرن التاسع عشر، والإمبراطورية البريطانية والدول التي خلفتها . إن مصطلح "الجغرافيات الاستعمارية والاستعمارية النقدية" يهدف إلى التقاط اهتمامات الجغرافيين المتنوعة . وهو يغطي محاولاتهم :

(1)إظهار أن تخصص الجغرافيا ، ومجموعة أوسع من الخطابات والممارسات الجغرافية ، لعبت دورًا حاسمًا - أو حيويًا - في الإمبراطورية ؛

(2)انتقاد هذه الجغرافيات الحيوية وتحريك التخصص إلى ما هو أبعد من قيودها وأعرافها ؛

(3)التعامل مع الروابط بين الجغرافيا والإمبراطورية كونها أعراضًا لعلاقات القوة المتأصلة في إنتاج المعارف الجغرافية ؛ و

(4) إعطاء الجغرافيا مكانة في المناقشات ما بعد الاستعمار الأوسع نطاقًا حول الاستعمار والهيمنة الغربية .

ينقسم الفصل إلى ثلاثة أقسام وعدد من الأقسام الفرعية التي ترسم (ما أراه) الموضوعات الرئيسية في هذا المجال الناشئ من البحث الجغرافي ، وتشير إلى بعض الطرق التي يمكن من خلالها تسمية المساعي النقدية للجغرافيين بأنها ما بعد استعمار . يضع القسم الأول الأدبيات الجغرافية في إطار فكري شامل ويرسم ردود أفعال الجغرافيين المتباينة تجاه ظهور ما بعد الاستعمار في الأكاديمية الغربية . ويوضح القسم الثاني الطرق المتنوعة التي يمكننا من خلالها تفسير الروابط بين الجغرافيا والامبراطورية ؛ ويثير القسم الثالث بعض الأسئلة حول الأهداف النقدية للجغرافيين .

الجغرافيا وما بعد الاستعمار

لدى الجغرافيين اهتمام نقدي طويل الأمد بالإمبريالية والاستعمار، ولكن أدب ما بعد الثمانينيات الذي نتناوله هنا يتميز بعدد من الاتجاهات الجديدة . ولقد برز الكثير من هذا في الحوار النقدي مع ما بعد الاستعمار ، الذي أصبح كلمة طنانة رائجة (وإن كانت مزعجة) لمجموعة من الممارسات النقدية التي تتصارع مع ما يعنيه العمل "بعد" و"ما وراء" و"في معرفة" الاستعمار (ينظر جريجوري، 2000أ). ويعرض الكثير من هذا الاهتمام المضاد للجوهرية بالبناء الاجتماعي للمعرفة والهوية ، وآليات المعرفة والقوة . ويتعامل الكثير من هذا مع الجغرافيا كونها مجموعة انتقائية ومتغيرة ومتنازع عليها من المفاهيم والمعارف والممارسات بدلاً من كونها مجالاً خطابيًا مستقلاً أو تخصصًا محددًا بدقة . ويستعرض الجزء الأكبر من الفصل هذه الأفكار المتغيرة حول الجغرافيا . ولكننا لا نستطيع أن نفهم تمامًا كيف ولماذا يتجه الجغرافيون إلى الماضي الإمبراطوري / الاستعماري ما لم نضع أعمالهم أولاً في سياق فكري أوسع لما بعد الاستعمار . من المهم أن نضع عمل الجغرافيين في هذا الموضع لأسباب عديدة ، ولكن دعوني أقدم مجموعتين من الملاحظات التي تتصل بالمناقشة التي تلي ذلك .

قوة ما بعد الاستعمار

أولاً، أصبح من الشائع أن نلاحظ أن عالم ما بعد الاستعمار قد فرض مطالب جديدة على النظرية والعلم الغربيين . هناك مطالبات بالاستماع إلى الآخر، وتقدير ادعاءات الاختلاف ، ودمج التاريخ الثانوي في التاريخ السائد ، والتوصل إلى تفاهم مع السياسات الثقافية للمعرفة الأكاديمية . أصبح الأكاديميون الغربيون أكثر انسجامًا مع الافتراضات الأوروبية المضمنة في رؤاهم التخصصية ، وأكثر حساسية لقضايا الاختلاف والتنوع الثقافي ، وأكثر يقظة للفكرة التي تتمثل في الفكر الأوروبي (وخاصة ما بعد التنوير) هي الآن أدوات نقدية لا غنى عنها وغير كافية . "لقد أصبح من غير المقبول الآن أن نكتب الجغرافيا بطريقة تجعل الغرب دائمًا في مركز جغرافيته الإمبريالية" ، هذا ما أعلنه تريفور بارنز وديريك جريجوري (1997: 14) في كتاب جغرافي حديث ، كما يبث علماء من تخصصات أخرى رسائل مماثلة . فقد كتب الناقد الأدبي الفلسطيني الأمريكي المؤثر إدوارد سعيد : "بالنسبة للعلماء والمعلمين من جيلي الذين تلقوا تعليمهم في إطار ما كان في

الأساس أوروبيًا مركزيًا ، فإن المظاهر الطبيعية وتضاريس الدراسة الأدبية ... قد تغيرت بشكل كبير ولا رجعة فيه ... [أصبح] علماء الجيل الجديد أكثر انسجامًا مع الطاقات والتيارات غير الأوروبية ، والمتحيزة جنسياً ، والمستعمَرة ، والمحرومة من المركزية في عصرنا "(2001 :65.)

ومن بين أمور أخرى ، نجح هذا الجيل الجديد ـ ما بعد الاستعمار ـ في ترسيخ فكرة مفادها أن تشكيل أوروبا كونها نبعاً مستقلاً للحداثة وموضوعاً / مركزاً للتاريخ العالمي ما هو إلا خيال قوي يحجب التكوين المتبادل بين أوروبا وغيرها من ثقافات العالم . ويعود نقاد ما بعد الاستعمار إلى الماضي ليكشفوا أن الهويات والثقافات والأمم والتاريخ كانت منذ فترة طويلة هجينة ومتشابكة ، ولم تكن قط مكتفية ذاتياً أو متبادلة الحصر، مع وجود مجموعة مختارة من الثقافات متفوقة بطبيعتها على غيرها . وبهذا المعنى ، يعمل ما بعد الاستعمار كمنظور نقدي للغرب ـ وهو ما يُظهِر أن "الاستعمار لم يكن أبداً ـ ببساطة ـ خارجياً عن مجتمعات العاصمة الإمبراطورية ... [ولكن] كان دائماً محفوراً بعمق ـ داخلها" (هول، 1996: 246).

وتشير ماري لويز برات إلى أن أوروبا "تم بناؤها من الخارج بقدر ما تم بناؤها من الداخل إلى الخارج" من خلال عمليات "التبادل الثقافي" ، بدءًا من "الحاجة الملحة للمدينة الكبرى لإعادة تمثيل محيطها والآخرين بشكل مستمر لنفسها" (1992: 4-7). ولكن ما بعد الاستعمار لا يرقى ببساطة إلى "الكتابة" إلى الغرب ، أو إلى سياسة الاعتراف ، التي تفضح المعرفة الأوروبية المركزية وإنكار المساواة الثقافية والمعرفية التي تكمن في قلب روح الهيمنة الغربية . إن نقد ما بعد الاستعماري مدفوع أيضًا بالاعتراف بأن الحرية في السيطرة على وسائل التمثيل الذاتي التي قدمها الاستقلال للشعوب المستعمرة لم تخلق بعض الحرية الفورية من أعباء التاريخ الاستعماري . تصف ليلا غاندي ما بعد الاستعمار بأنها "حالة مضطربة بسبب عواقب فقدان ذاكرة التاريخ الذاتية الإرادة" - برغبة في نسيان الماضي والغرب - وتشير إلى أن "القيمة النظرية لما بعد الاستعمار تتأصل ، جزئيًا ، في قدرتها على تعميق الذكريات المنسية لهذه الحالة" (1998: 3-17)

إن الأمر الحاسم هنا هو أن "ما بعد الاستعمار لابد وأن يُرغَم على الاعتراف بدوره أو تواطؤه في أهوال الماضي وأخطائه" . ولا ينبغي لنا أن نغض الطرف عن إغراءات الحداثة والقوة الاستعمارية . فنحن في احتياج إلى استعادة خطوط الرغبة المتبادلة بين الذات والآخر التي عبرت العالم الاستعماري فضلاً عن خطوط الإكراه والعداء المتبادل ، كما أننا في احتياج إلى تقييم التأثير المستمر للعادات الأوروبية وفئات الفكر الأوروبية . وبهذا المعنى ، يقترح غاندي أن ما بعد الاستعمار يمكن أن يُنظَر إليه كونه مشروعًا "تحسينيًا" و"علاجيًا" يعود بالضرورة إلى الماضي الاستعماري من أجل مساعدة رعايا ما بعد الاستعمار على التعامل مع "الفجوات والشقوق في حالتهم" . وهو يتصارع مع شبح التأخر وعدم الاكتمال الذي يطارد النضالات من أجل إنهاء الاستعمار ومناهضة الاستعمار : شبح الوصول إلى مسرح الحكم الذاتي بعد الغرب فقط ، والنضال من أجل أن نكون حداثيين ومختلفين في الوقت نفسه . وتركز الطاقات ما بعد الاستعمار على المدى الذي كان فيه الاستعمار ثنائيًا (ثنائي ، إقصائي ، منهجي) أو متناقضًا (متباين ، مضطرب ومتناقض). إن التوضيح النقدي للاستعمار كونه كلاً مفاهيمياً مع بعض السمات التاريخية العابرة والآثار غير المتساوية بشكل صارخ يتم تخفيفه من خلال العمل الذي يؤكد على تنوع الاستعمار وتهجينه وقابليته للتشويه (ينظر لومبا، 1998).

وأخيرًا ، في هذا القسم الفرعي ، يهتم ما بعد الاستعمار بشكل مركزي بالارتباطات بين الثقافة والسلطة . لا يتم تجاهل العوامل الاقتصادية والسياسية والتفسيرات للاستعمار والامبراطورية بقدر ما يتم دمجها في أطر تفسيرية ثقافية جديدة تستكشف إنشاء وتداول المعنى ، وثنائيات الذات/الآخر، و المركز/المحيط ، والحداثة/التقليد ، والمستعمر/المستعمر وما إلى ذلك ، والتي شكلت (والبعض يقول إنها كانت محددة بشكل مفرط) العلاقات الحضرية – الاستعمارية . "لقد أصبح الاستعمار ممكنًا ، ثم استمر وتعزز ، بفضل التقنيات

الثقافية للحكم ، كما كان بفضل أساليب الغزو الأكثر وضوحًا ووحشية ،" كما يقترح نيكولاس ديركس (1996) (ينظر أيضًا توماس، 1993). غالبًا ما ترتبط الثقافة والسلطة من خلال مفهوم الخطاب ، ومن المناسب في هذه المرحلة أن نستطرد قليلاً في أعمال إدوارد سعيد ، لأنها تُرى كونها محورية لتطوير ما بعد الاستعمار كمشروع أكاديمي يستعيد الأهمية السياسية للثقافة .

وكما لاحظ روبرت يونج بشكل مفيد ، فإن شرح سعيد لـ "فكرة الاستشراق كخطاب بالمعنى العام هو الذي سمح بإنشاء نموذج مفاهيمي عام يمكن من خلاله تحليل الأشكال الثقافية للأيديولوجيات الاستعمارية والإمبريالية" ، ويمكن النظر إلى الاستعمار كونه "إنتاجًا إيديولوجيًا عبر أنواع مختلفة من النصوص المنتجة تاريخيًا من مجموعة واسعة من المؤسسات والتخصصات والمناطق الجغرافية المختلفة" (2001: 343). زعم سعيد أننا لا نستطيع أن نفهم تمامًا كيف تعمل الإمبريالية والاستعمار ما لم نفحص الوسائل الخطابية التي استولى بها الغرب على السلطة لمنح (وإنكار) الاحترام الثقافي للآخرين وتفويض ما يعد حقيقة (وما لا يعد كذلك) . وضح كتابه الرائد "الاستشراق" (1978) كيف تمارس القوة الغربية من خلال نوع معين من اللغة (الخطاب - وهو مصطلح استعاره سعيد من فوكو) كان مليئًا بالمواقف الثقافية المتمثلة في التفوق والهيمنة . لقد كشف سعيد عن ميل الغرب إلى إهانة الآخر والهيمنة عليه ، وأكد على الطابع الثنائي (الجوهري ، والإقصائي ، والمعزز للذات) للخطاب الاستعماري . وقد فحص كيف عمل الشرق الذي تم بناؤه والتلاعب به في الخطاب الاستشراقي بمثابة "الذات البديلة وحتى الخفية" لأوروبا - كـ "مرآة مشوهة" حددت فيها أوروبا نفسها واحتفلت بتفوقها (1978: 27؛ واشبروك، 1999: 598).

ولكن ثانياً ، إن مصائد ما بعد الاستعمار وكما يوحي بعض هذا ، لا يوجد إجماع حول الأهداف المناسبة ونطاق دراسات ما بعد الاستعمار . لقد أصبح ما بعد الاستعمار ساحة معركة فكرية للفلسفات المتنافسة ، وهي ساحة معركة تضع سياسات الشمولية والتضامن والعالمية ضد سياسات الموقع والانتماء والنسبية . ولعل الكلمات التي تصف مجال دراسات ما بعد الاستعمار بشكل أفضل هي "انتقائي" و"مجزأ" و"متنافس" ، والعمل ما بعد الاستعمار في الجغرافيا بعيد كل البعد عن التماسك . ويحتضن الجغرافيون وجهات نظر ما بعد الاستعمار ويطورونها بمزيج من الإثارة والحذر .

من ناحية أخرى ، فإن ما يطلقون عليه غالبًا " نقد ما بعد الاستعمار" هو تعزيز ما يسمى "التحول الثقافي" في الجغرافيا البشرية ، وإعادة تأكيد أهمية وجهات النظر التاريخية داخل هذا التخصص ، وإدخال العديد من الموضوعات الجديدة للدراسة في اللعب النقدي (ينظر غراهام ونش، 2000). يتمتع سعيد بمكانة تعويذية في كل هذا ، وليس فقط بسبب أفكاره حول الخطاب ، والتي لها الآن مكانة قياسية في الجغرافيا . كان عمله مهمًا بشكل مضاعف للجغرافيين بسبب إصراره على أن الإمبريالية والاستعمار يجب أن يتم تصورهما جغرافيًا - كمجموعات من القوة التي تهتم جوهريًا بالأرض والإقليم والنزوح والحرمان (ينظر جريجوري، 1995). إن الكثير من أعمال سعيد مبنية على فكرة "الجغرافيا الخيالية" - "اختراع وبناء فضاء جغرافي يسمى الشرق ، على سبيل المثال ، مع إيلاء اهتمام ضئيل لواقع جغرافية سكانه" (سعيد، 2000: 181؛ ينظر أيضًا سعيد، 1993). إن هذا الدافع النقدي المرن يؤطر الآن عددًا لا يحصى من الدراسات الجغرافية ، ويستخدمه الجغرافيون لإضفاء طابع مكاني (إن لم يكن دائمًا تاريخيًا بعناية) على فكرة الخطاب الاستعماري "بالمعنى العام" . لكن سعيد ليس المفكر لما بعد الاستعمار الوحيد الذي لديه اهتمامات جغرافية . والواقع أنه رعى تحولًا مكانيًا في دراسات ما بعد الاستعمار ، وقد استعان الجغرافيون بأعمال علماء مثل بول كارتر وتيموثي ميتشل المهتمين بشدة بالطابع المكاني للاستعمار والإمبراطورية (ينظر جريجوري، 1994: 15-208).

ومن ناحية أخرى ، هناك شكاوى حول نوع العمل الذي تشجعه مرحلة ما بعد الاستعمار داخل الجغرافيا وخارجها . ويُقترح أن الكثير من أعمال ما بعد الاستعمار تفتقر إلى التفاصيل ، وتركز على مسائل الخطاب و وكالة المستعمر، وتشوبها النصوصية والتعميمات المتعمدة ، وتستند بشكل وثيق إلى التجربة الاستعمارية لأجزاء معينة من العالم (وخاصة الهند) ، وتتشبع بأشكال من السياحة الفكرية التي تبقينا داخل المسار الإمبراطوري للغرب . والشكاوى الأكثر شيوعًا هي أن نقاد ما بعد الاستعمار يغفلون عن تنوع وأهمية الاستعمار والإمبراطورية ، ولا يدركون التزامهم بموضوع ما بعد الاستعمار إلا جزئيًا لأنهم يركزون على إسقاط إرادة الغرب للسلطة ويميلون إلى تقليص الاستعمار إلى مسائل الخطاب .

إن الكتابة الجغرافية عن الاستعمار والإمبراطورية تحتفظ عمومًا باهتمام أقوى بكثير بالتجارب الجسدية والممارسات المادية ، والطبيعة الجسدية للحركة والتفاعل ، وإنشاء شبكات القوة مقارنة بالكثير من الأعمال لما بعد الاستعمارالتي تنبع (خاصة) من الدراسات الأدبية والثقافية . ولهذه الأسباب جزئيًا ، يصور الجغرافيون أحيانًا ما بعد الاستعمار الأدبي/الثقافي كونه مجموعة غريبة من الأفكار التي تحتاج إلى إعادة وضعها في سياقها أينما تم تناولها . ومن المهم أن نلاحظ أن الجغرافيين لا يعتمدون ببساطة على نظرية ما بعد الاستعمار ، فقد انخرطوا أيضًا في التأريخ الجديد للعلوم الغربية (على سبيل المثال أعمال برونو لاتور وستيفن شابين) ، والفلسفات النسوية ، ونظرية ما بعد البنيوية الفرنسية ، والمنح الدراسية في مجالات التاريخ الإمبراطوري والأنثروبولوجيا الثقافية . لقد نشأت الجغرافيات الاستعمارية والاستعمارية النقدية التي سنستكشفها الآن بمزيد من العمق في خضم هذه التطورات والمناقشات . يمكن وصف ما بعد الاستعمار بأنه مزاج متعدد التخصصات قوي في العلوم الاجتماعية والإنسانية يعيد تركيز الاهتمام على الماضي الإمبريالي / الاستعماري ، ويراجع بشكل نقدي فهم مكانة الغرب في العالم . ومع ذلك ، فقد شاركت تخصصات مختلفة في الإمبراطورية بطرق مختلفة وليس لديها اهتمامات متطابقة لما بعد الاستعمار.

الجغرافيا والاستعمار والإمبراطورية

تتخذ الأبحاث الجغرافية عن الاستعمار والإمبراطورية أشكالاً متنوعة ، ولكن من الممكن تحديد اتجاهين رئيسيين في الأدبيات . يمكننا التمييز بين الأبحاث التي تركز على ما أطلق عليه فيليكس درايفر (1992) "إمبراطورية الجغرافيا" وتلك التي تستكشف ما أطلق عليه ديريك جريجوري (2001أ) " جغرافيات الاستعمار " . يركز العمل الأول بشكل حصري تقريبًا على التخصصات الحضرية ، في حين أن الأخير يهتم أكثر بالتنوع التاريخي والجغرافي للاستعمار والإمبراطورية .

إمبراطورية الجغرافيا

في أوائل التسعينيات ، بدأ الجغرافيون في التشكيك في السرديات المستقلة والداخلية لتاريخ الجغرافيا ، **وكشف التحيزات الغربية المكرسة في الفكر الجغرافي** ، واستكشاف المأزق التاريخي للجغرافيا مع الإمبراطورية . عندما ظهرت ورقة درايفر "إمبراطورية الجغرافيا" في عام 1992، لم يكن هناك أي تأمل نقدي تقريبًا بشأن التواطؤ التاريخي لهذا التخصص في الإمبراطورية . كتب درايفر : "قد يعد البعض ... [هذا] علامة على القبضة القوية التي يتمتع بها الإطار الذهني الاستعماري على الموضوع" . "يبدو الأمر وكأن كتابات أسلافنا كانت مشبعة بالموضوعات الاستعمارية والإمبريالية إلى الحد الذي يجعل إشكالية دورها تحديًا لمكانة التخصص الحديث . ومع ذلك ، ربما يكون هذا هو الشيء الذي يجب القيام به إذا كان للجغرافيين استغلال الفرص الفكرية والسياسية الحالية" (1992: 26). كان درايفر يشير إلى الفرص التي يقدمها (أساسًا)

عمل سعيد ، وعلى مدى السنوات العشر الماضية كان هناك انفجارا في الاهتمام بكيفية تنشيط الإمبريالية والمركزية الأوروبية من خلال الخيالات والممارسات الجغرافية .

في مجموعة من المقالات التكوينية ، لاحظت آن جودليوسكا ونيل سميث أنه في حين أن "الجغرافيا كانت تسعى دائمًا إلى تحقيق مجموعة واسعة من الأجندات الفكرية في وقت واحد ... ولا يمكن إرجاع كل هذه الأجندات بشكل مباشر إلى مخاوف الإمبراطورية " ، فمن الواضح أن " تكوين وتأسيس هذا التخصص كان مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بالإمبريالية "(1994 :1-8) . بالنسبة لآخرين أيضًا ، **كان الجغرافيون "القابلات " الأساسيات للإمبريالية الأوروبية . لقد قدموا المعلومات العملية اللازمة للغزو والاستعمار في الخارج والتبرير الفكري للتوسع من خلال كتاباتهم "النظرية" المعقدة بشكل متزايد حول الجغرافيا السياسية وتأثير العوامل المناخية والبيئية على تطور الأعراق المختلفة"** (بيل وآخرون، 1995: 6). إن العمل على إمبراطورية الجغرافيا يتحدى السرديات الواثقة من نفسها والحازمة عن الاستكشاف والغزو والاستيطان والحكم ـ مع إفساح المجال -الخطأ للحقيقة ، والعلم ينتصر على الأسطورة ، والحداثة تحل محل التقاليد ، والحضارة ـ التي تفرض نفسها على الهمجية ـ التي تسود سجلات الجغرافيا والتاريخ الإمبراطوري .

والآن أصبحت المناهج الجغرافية في التعامل مع العالم ـ التي كانت ينظَر إليها في السابق كونها مستنيرة وغير مهتمة ـ ينظَر إليها الآن كونها بنيات قوية حفزت ـ وأدامت ـ العلاقات الإمبراطورية ، وأصبحت قصص ـ التقدم الغربي المنتصر الذي لا جدال فيه ـ تُروى الآن كونها حكايات متعثرة (وأحياناً مخيفة) عن النضال البشري . وقد أظهر الجغرافيون ـ كيف أن العديد من المعارف والممارسات التأسيسية والمميزة لتخصصهم ـ سردياته عن الاستكشاف والسفر، والخرائط وجرد الموارد ، وأنظمة المقارنة المكانية ، والتصنيف والتخطيط ـ كانت بمثابة أدوات للاستيلاء المادي والفكري . لقد اهتموا بشكل خاص بصور الفضاء الفارغ وغير المتطور الذي ينتظر يد الغرب التحويلية التي أصبحت مركزية للرأي القائل **بأن الجغرافيا تدور حول إيجاد نوع معين من النظام في العالم .**

ويقال الآن أن هذا النظام - النظام الأوروبي والديكارتي - تم صنعه بدلاً من أن يكون معطى (أو كان موجودًا طوال الوقت وينتظر أن يتم العثور عليه) ، وغالبًا ما تم صنعه بطرق متناقضة . تماشياً مع العديد من الانتقادات ما بعد الاستعمار ، يتم تصور "الإمبراطورية" كمرآة مشوهة تحدد من خلالها تخصصات الجغرافيا نفسها وتدافع عنها . يعمل العمل على إمبراطورية الجغرافيا كنقد للغرب يتم تلسكوبه من خلال مجموعة معينة من العدسات التخصصية . لقد تم إيلاء قدر كبير من الاهتمام لمساحات المعرفة (على سبيل المثال ، الحقل والدراسة) ومواقع الدراسة التي تم فيها إنتاج المعرفة ، والجهد المادي والمؤسسي الذي بذل لإخراج النظام من الفوضى (للسفر، والجمع ، ورسم الخرائط ، والتمثيل ، والامتلاك والبقاء). لقد أعاد الجغرافيون النظر في أنشطة الأفراد ، بدءًا من الشخصيات المعروفة في تاريخ الجغرافيا مثل ألكسندر فون همبولت وهالفورد ماكيندر، إلى شخصيات أقل شهرة مثل إريك داتون (جغرافي ومسؤول استعماري في إفريقيا) وجيمس رينيل (الذي قام بمسح الهند للبريطانيين) الذين ، كما يقال ، يجب تضمينهم في التأريخ النقدي للجغرافيا والإمبراطورية (ينظر ريان ، 1997؛ مايرز، 1998). تغذي مثل الدراسات الحالة هذه مناقشات أوسع نطاقًا حول الخطابات الجغرافية الإمبريالية ، وترتبط القصص القصيرة التجريبية بجسم شامل من النظرية .

يكشف هذا النطاق من الأعمال كيف نشأت التوترات بين أنماط مختلفة من إنتاج المعرفة ، وكيف اعتمد إنشاء المعرفة الجغرافية الحقيقية والجديرة بالثقة (العالمية والموثوقة) على الفصل بين حدود المعرفة الموثوقة والمعرفة المذهلة ، وكيف تم بناء الجغرافيا من الخارج إلى الداخل ، من خلال تجميع البيانات حول

الأراضي الأجنبية وإنشاء فئات جغرافية تفصل "نحن" عن "هم" (ينظر هيفيرنان ، 2001؛ ويذرز، 2000). في قراءة ما بعد الاستعمار المعلنة لـ "الخطاب الأفريقي" للجمعية الجغرافية الملكية في لندن (RGS) بين عامي 1831 و 1871، حاول كلايف بارنيت أن يُظهر أن ، إن الظروف الفعلية للاتصال بين الثقافات التي اعتمد عليها إنتاج المعرفة الجغرافية في القرن التاسع عشر قد أعيد كتابتها بأثر رجعي [للجمهور الحضري] لتقديم الرعايا الأوروبيين [غير المميزين عرقيًا] كمصدر وحيد للمعنى ... وبدون استخدام المرشدين والمترجمين المحليين ، فإن مغامرات الرجال الذين تم تصويرهم على أنهم باحثون مثابرون ومستقلون ومنكرون للذات عن الحقيقة [ولا شيء غير ذلك] كانت لتكون مستحيلة .

ولكن هذا الاعتماد العملي الروتيني على المعارف والمعلومات المحلية لا يُمنح أي قيمة معرفية . "إن المعرفة المحلية تُعاد صياغتها كونها عائقًا ، وحاجزًا أمام وصول الحقيقة... ويتم قبول المعاني والمعارف الجغرافية المحلية في هذا الخطاب بشرط تجريدها من أية صلاحية مستقلة عن التعريفات الأوروبية للمعرفة العلمية... ويتم تمثيل معرفة الموضوعات غير الأوروبية... كونها الارتباك والضوضاء التي يتشكل العلم الأوروبي ضدها ويضمن سلطته. (1998: 244-245)" إن هذا المقطع يتاجر بالعنف المعرفي الذي تخلفه إمبراطورية الجغرافيا ، ويحدد بارنيت أهمية العلم والعقل كونهما ناقلين مزدوجين للنقش (ينظر أيضاً أندرسون، 1998).

هناك تركيز قوي في الأدبيات على المشاريع الجغرافية "الرسمية" التي أقرتها الدولة ، والجمعيات العلمية ، وثقافة البحث المهني في الجغرافيا . ولكن الجغرافيين مثل تيريزا بلوزايسكا (1996) وأفريل مادريل (1998) لفتوا انتباهنا إلى الدور الذي لعبه التعليم الجغرافي (الكتب المدرسية والرحلات الميدانية) في بريطانيا في تشكيل الافتراضات الإمبراطورية بين الشباب . وفي السنوات الأخيرة كانت هناك موجة من العمل على أشكال السفر والترفيه والاستهلاك التي غذت المواقف الإمبراطورية بين الطبقات المتوسطة والدنيا (على سبيل المثال فيليبس، 1997) .

ربما يكون كتاب فيليكس درايفر "الجغرافيا النضالية" (2000) هو أكثر الروايات إنجازًا حتى الآن عن التراث الإمبراطوري البريطاني في القرن التاسع عشر . رسم درايفر مسار تشكيل "ثقافة الاستكشاف" الفيكتورية التي تركزت على إفريقيا ، والتي تضمنت حشد مجموعة متنوعة من الموارد المادية والخيالية (المعدات ، والأدلة ، والرعاية ، والدعاية ، والسلطة ، والعلم ، والأساطير وما إلى ذلك) ، وارتكزت على إنشاء مساحات جديدة للمعرفة . ويؤكد درايفر على أهمية فحص كل من إنتاج المعرفة الجغرافية واستهلاكها ، وقراءة النصوص الرسمية والشعبية ، والتفكير في التفاوض على المعنى والقوة في كل موقع . لقد تم تجميع صورة "أفريقيا الأكثر ظلمة" التي تم تقديمها للجمهور البريطاني من قبل شبكة نبيلة من العلماء والسياسيين والمحسنين الذين جعلوا من RGS موقعًا موثوقًا به لتعزيز استكشاف ونشر المعرفة الجغرافية . ولكن هذه الجغرافيا الخيالية لأفريقيا تم صياغتها أيضًا في المساحات العامة للمعرفة مثل المتحف وقاعة العرض واللوحة الإعلانية ، وفي الروايات الشعبية عن الاستكشاف (مثل تلك التي كتبها هنري مورتون ستانلي) والتي عدتها السلطات الجغرافية مثيرة .

عمل درايفر بفعالية على إضفاء طابع متعدد على فهم التقاليد الجغرافية ، وتسييس العمل في مجال الاستكشاف والإمبراطورية من خلال إظهار عدد كبير من المجازات الخطابية التي دخلت في البناء الجغرافي لـ "أفريقيا الأكثر ظلمة" (البلاغة العلمية ، والعطش للمغامرة والغرابة) التي يتم إعادة تدويرها في مجموعة متنوعة من الأشكال الثقافية المعاصرة . ويزعم أن "مفهوم المعرفة الجغرافية كونها حكرًا على مهنة حديثة قائمة على الجامعة ("تخصص" الجغرافيا) هو مفهوم عفا عليه الزمن بشكل واضح بالنسبة للقرن التاسع

عشر" ، و"غير مناسب للقرن العشرين" (2000: 7، 202، 216) . لقد أصبح الوجود الإمبراطوري البريطاني المتنامي والمتغير في العالم على مدار القرن التاسع عشر محوريًا للصورة العامة للجغرافيا ، وما يزال الماضي الإمبراطوري لبريطانيا طليقًا في مخيلتنا الجغرافية .

إن العمل على إمبراطورية الجغرافيا يفضح ما أطلقت عليه جيليان روز (1995) "المكانية المرآوية" للتقاليد الجغرافية . ونحن نشجع على تحدي الطريقة التي عملت بها الجغرافيا كمساحة تأديبية "يُجمع فيها البعض ويُنفي منها آخرون" ، والتي تفرض النظام (تاريخيًا تحت ستار العقل والعلم ، وباسم الحضارة والتقدم) على عالم غير مستكشف وغير منضبط . إن قِلة من الجغرافيين قد يخالفون الرأي القائل بأن **الجغرافيا كانت دوماً علماً عملياً** ، ويصر كثيرون الآن على أننا ننظر إلى مجموعة أكبر من المعارف والممارسات الجغرافية من تلك التي عدها مؤرخو الجغرافيا أساسية في تعريف وتطوير هذا التخصص . ويشير الجغرافيون إلى أصوات وطرق أخرى لمعرفة أن إمبراطورية الجغرافيا استولت عليها أو وضعتها خارج الحدود ، ويفكرون في الشكل الذي قد يبدو عليه تاريخ الجغرافيا الأكثر شمولاً . ويتم التعامل مع "الجغرافيا" كونها مسعى عملياً (مجسداً ، تحقيقياً ، عملياً) ومشروعاً خطابياً (مفاهيمياً ، نصياً ، مؤسسياً ، تربوياً). ويبحث الجغرافيون النقديون عن علامات التناقض والازدواجية وتأكيد القوة في الأرشيف الجغرافي ، ويظهرون أن الإمبراطورية كانت محفورة بعمق في تخصص الجغرافيا .

الجغرافيات الاستعمارية

لا يمكن ببساطة تقليص صياغة "الجغرافيات الاستعمارية والإمبريالية النقدية" إلى تاريخ تأديبي مُجدد . وقد حثنا ديريك جريجوري على الخروج من حدود التأريخ "السياقي" ، الذي يستعيد الطوارئ التاريخية والقابلية للتغيير في الأفكار والممارسات الجغرافية ، ووضع "تحليلات مكانية" "تكشف عن آلاثار المكانية في إنتاج القوة والمعرفة" (1998: 11). وهو يستخدم مصطلح "الجغرافيات الاستعمارية" للإشارة إلى الطرق العديدة التي تعمل بها الجغرافيا والاستعمار في بعضهما البعض ، والمواقف النقدية العديدة التي يمكن من خلالها التعامل مع مثل هذه الأعمال . وسأتناول أربعة من هذه المناهج مع بعض الأمثلة من الأدبيات : من خلال التركيز التحليلي (على سبيل المثال إنتاج وتمثيل الفضاء) ، من خلال الموقف السياسي والفكري (على سبيل المثال النسوية) ، من خلال الموضوع الجوهري (على سبيل المثال رسم الخرائط) ومن خلال الموقع - على الرغم من وجود طرق أخرى لوصف الأدبيات .

أولاً، يرتبط اهتمام الجغرافيين بإمبراطورية الجغرافيا بمخاوف تحليلية أوسع نطاقاً ، مثل التمثيل والتجريد والتصور والتجسيد – والتي تعيد تحديد موقف مصطلح "الجغرافيا" حتمًا من الناحيتين التاريخية والمعرفية . ففي سلسلة من الكتب والمقالات ، استكشف جريجوري "الإنتاجات الاستعمارية للطبيعة والفضاء" وما يسميه "التضاريس" (الوسائل المكانية التي عملت من خلالها اللقاءات والممارسات والتمثيلات الاستعمارية). يزعم جريجوري في البداية أن علم الجغرافيا الحديث لم يكن ببساطة "علمًا أوروبيًا أساسيًا" مدفوعًا بالعقل ، كما زعم البعض ، بل كان أيضًا "علمًا أوروبيًا عميقًا" (راجع ليفينجستون وويذرز، 1999). وعلاوة على ذلك ، فإن المركزية الأوروبية مشبعة بـ "نظام من الجغرافيات [أو أساليب كتابة الأرض] التي تنظم تمثيلاتها" - الجغرافيات التي تمنح المكان طابعًا مطلقًا ، وتجعل العالم موضوعيًا ، وتضبط الذات ، وتجرد الطبيعة والثقافة من خلال المصطلحات الإمبريالية (جريجوري، 1998: 3-40، 60-7).

كما استكشف أيضًا المساحات التكوينية - أو "الطوبولوجيات / الجغرافيات" - التي يتم حملها داخل النصوص وأشكال السفر: المساحات التي لا مركز لها ("الفضاء الجذري")، والمساحات المعقدة ذات المركز ("الفضاء المتاهة") والمساحات المنظمة الخطية ("الفضاء المخطط") التي شكلت كيفية صنع المعاني الثقافية

وإعادة صنعها من خلال السفر (جريجوري، 2000ب). حاول جريجوري استخلاص الأنظمة المفاهيمية التي غرست العمل التجريبي الذي قام به وكلاء الجغرافيا الإمبرياليون/الاستعماريون . وباستخدام مصطلحات فوكو، بدأ في تقديم علم آثار جغرافيات الإمبريالية والاستعمار الذي يدعم الأنساب التي أنتجها طلاب إمبراطورية الجغرافيا . وهو يفعل ذلك من خلال مجموعة منتقاة من النظريات ، ويُظهِر كيف دارت إمكانية الوصول الإمبراطوري والسيطرة الاستعمارية حول إنشاء نقاط مراقبة مادية وخطابية (أو "مساحات الرؤية المصطنعة") . وقد ركز على المسافرين الغربيين في مصر، ولكنه أصبح مهتمًا مؤخرًا - كما فعل العديد من الآخرين - بالإنتاج الاستعماري للطبيعة (ينظر جريجوري، 2001ب). وقد ساهم آخرون في المناقشات حول مكانية الخطاب الاستعماري من خلال التركيز على تمثيلات الطبيعة والفضاء .

ولنتأمل هنا أطروحة ديفيد ليفينغستون القائلة بأن النصوص والسياقات الجغرافية "تتشكل بشكل متبادل في خضم الظروف الطارئة الفوضوية للتاريخ" (1991: 414)، وحجة ريتشارد فيليبس القائلة بأن المستكشف ريتشارد بيرتون في القرن التاسع عشر تعامل مع "الجغرافيا" كونها نقطة انطلاق لاستكشافات الجنس "حيث يكون كل شيء سائلاً ويتم وضع الحدود فقط ليتم عبورها" (1999: 73). ويناقش ليفينغستون كيف ابتكر العلماء الغربيون (بما في ذلك الجغرافيون) "جغرافيات أخلاقية" للتفوق العرقي تدور حول الملاحظات العلمية ومزاعم الحقيقة حول الروابط بين المناخ والفضيلة والتنمية الاجتماعية . وأصبح المناخ ، على وجه الخصوص ، "موردًا تأويليًا قابلاً للاستغلال لفهم الاختلاف الثقافي وإسقاط الفئات الأخلاقية على الفضاء العالمي" ، مع **تمجيد العالم المعتدل على العالم الاستوائي** (ليفينغستون، 2000ب: 93). "لقد ساعد العلماء في إنتاج منطقة متخيلة في أذهان عامة الناس في العصر الفيكتوري - المناطق الاستوائية - والتي كانت في آن واحد مكاناً للطفيليات والأمراض ، ومكاناً يدعو إلى الاحتلال والإدارة الاستعمارية ، ومختبراً للاختيار الطبيعي والصراع العنصري ، وموقعاً للخطر الأخلاقي والاختبار" (ليفينجستون، 1999: 109).

وعلى النقيض من ذلك ، يوضح فيليبس كيف كان"السفر والترجمة والجغرافيا وعلم الجنس مرتبطة ارتباطاً وثيقاً" في ذهن بيرتون ، وكيف أنتج هذا المستكشف "جغرافيات جنسية" ديناميكية ومتناقضة ومتنقلة كشفت عن النزعة الجنسية المغايرة السائدة في إنجلترا الإمبراطورية ، وقوضتها في الوقت نفسه . لقد قرأ كل من ليفينغستون وفيليبس "الجغرافيا" كونها خطابًا إمبراطوريًا - كوسيلة لتحديد وتشفير المعرفة ، وإنتاج آخر استعماري ، وتحريض القوة والرغبة - ولكن مشاريعهما في الاسترجاع التاريخي والمراجعة النقدية تستثمر الخطاب بمعاني نصية وسياقية مختلفة تمامًا .

ثانياً، هناك أدبيات متخصصة حول ممارسات المعرفة الجغرافية الإمبريالية / الاستعمارية المحددة . وتحتل الخريطة مكانة خاصة في المداولات النقدية للجغرافيين ودراسات ما بعد الاستعمار . ويبدو الآن من الواضح أن رسم الخرائط لعب دوراً حاسماً في بناء الإمبرياليين للمساحة كونها عالمية وقابلة للقياس والتقسيم . وكما لاحظ جراهام بورنيت ، فإن تاريخ رسم الخرائط قدم "ساحة مثالية لاستكشاف كيف أن الإنتاج التمثيلي للإمبراطورية ... [خلق] مسرحاً للإيماءات الإمبريالية الدرامية" (2000: 6). وقد اتبع العلماء القيادة النقدية للراحل بريان هارلي ، الذي بدأ في استكشاف الروابط بين الخرائط والمعرفة والقوة في ثمانينيات القرن العشرين ، وهناك الآن أدبيات هائلة حول التاريخ المتشابك للإمبراطورية ورسم الخرائط (ينظر جاكوب، 1992). ويؤكد الكثير من هذه الأدبيات على قوة الخرائط . على سبيل المثال ، يستكشف ماثيو إيدني كيف ساعد المسح المثلثي العظيم للهند (الذي بدأ في عام 1817) البريطانيين على "تقليص تنوع الهند الهائل إلى بنية عقلانية وقابلة للتحكم في نهاية المطاف "(1997 :14-35).

كان المسح ورسم الخرائط من العناصر الأساسية في إنشاء "صورة مفاهيمية تميز الأوروبيين عن الهنود الذين حكموهم ... [و] صورة خرائطية للإمبراطورية [الهندية] كونها كيانًا إقليميًا وسياسيًا واحدًا". وقد نظر بورنيت (2000: 38-52) إلى قوة الميتابيس الخرائطي - كيف استحضر المستكشفون والمساحون ورسامو الخرائط النصوص الرسمية (والأسطورية غالبًا) لأسلافهم وأعادوا رسمها من أجل تعزيز المطالبات الإقليمية ، وتقييد الفضاء الاستعماري ، وتأمين سمعتهم. ومع ذلك ، فإن هؤلاء العلماء وغيرهم من العلماء مهتمون أيضًا بكيفية مقاطعة وتقويض اليقين المكاني للخريطة . قد نستعيد لحظات التناقض في السجل الخرائطي ، ونستكشف المعارف المحلية التي استخدمها المسافرون الغربيون ثم محوها ، ونتعمق في الظروف المادية والثقافية المتوترة التي تم فيها إنشاء المعارف الخرائطية (على سبيل المثال، برافو، 1999؛ كلايتون، 2000ب). هناك أيضًا وفرة من الأعمال حول الخرائط البديلة - الأصلية وما بعد الاستعمارية - والتي تستند إلى مقدمات ثقافية ومعرفية مختلفة عن "الهندسة الإسقاطية المجردة والإحداثية" لرسم الخرائط الغربية (لويس وودوارد، 1997: 537).

ثالثا ، إن "الجغرافيات الاستعمارية" قابلة للفحص النقدي من خلال مجموعة متنوعة من المواقف السياسية الفكرية . والنسوية هي أحد هذه المواقف ، موقف يترك أثراً عميقاً على انخراط الجغرافيين في الهوية والاختلاف . وقد أكدت أليسون بلانت وجيليان روز (1994: 14) على الحاجة إلى التشكيك في "الخرائط الإمبراطورية" ، وتقبل مفاهيم أكثر مرونة لتكوين الذات ، واستكشاف "الفضاءات المتناقضة" التي تقاوم الفضاء "الشفاف" و"المتجانس" الذي رسمته أشكال ذكورية من المعرفة . وهما تعالجان "الخرائط الإمبراطورية" كونها استعارة مفاهيمية لكل تلك الاستراتيجيات (بما في ذلك الخرائط نفسها ، بالطبع) التي تدرج الاختلافات بين الجنسين كونها اختلافات مكانية من خلال بناء بعض الفضاءات على أنها أنثوية في الأساس والبعض الآخر على أنها ذكورية بشكل قاطع .

تتسم بعض الأدبيات النسوية الجغرافية بتوجه تأديبي حاد ، ولكن الكثير منها يدرس الحدود المكانية الأوسع بين الجنسين والتي تم تأليفها وتفويضها من قبل الاستعمار، وترابطها مع بنيات العرق والطبقة . ناقشت سارة ميلز (1999) وجوديث كيني (1995) الطرق التي تفاوض بها الرجال والنساء البريطانيون والهنود على "المساحات الضيقة" في الهند الاستعمارية (محطاتها الجبلية ومعسكراتها) ، وتساءلت عن مدى كفاية الحبس (أو الإقصاء والتجاوز) كطرق لتنظيم فهم الأنوثة والذكورة في السياقات الاستعمارية . وقد استكشفت أليسون بلانت (1994؛ 2000) وشيريل ماك إيوان (2000) كيف تغيرت الموضوعات ومواقف المشاهدة لدى المسافرات البيض بينما كن يتنقلن بين "الوطن" و"الخارج" ويقدمن أنفسهن كنساء وعالمات ومستكشفات وكاتبات ووكيلات للإمبراطورية أمام جماهير "متحضرة" و"متوحشة" . وبدأ جيمس دنكان (2000) في تفكيك بنية الذكورة الاستعمارية في البيئات الطبيعية التي كانت مختلفة جذريًا عن تلك التي جاء منها المستعمرون . ويُظهِر كيف ارتبطت الخطابات الأخلاقية في مزارع البن في مرتفعات كانديان في سيلان بخطاب ثانٍ عن "الذكورة الأخلاقية" الذي كان متأثرًا باتفاقيات السرد في رواية المغامرات الذكورية . لقد صور المزارعون المرتفعات الاستوائية كونها خصمًا جسديًا ونفسيًا يختبر رجولتهم وأليافهم الأخلاقية ، والتي اكتسبت ضدها قصصهم عن النضال البطولي (والمخزي أحيانًا) والخوف من فقدان رجولتهم ، زخمًا نصيًا .

رابعًا، اهتم الجغرافيون بكيفية ابتكار جغرافيا ما بعد الاستعمار البديلة التي لا تهتم فقط بالقضايا التأديبية ولكنها مهتمة على نطاق أوسع بطبيعة الاستعمار وإنهاء الاستعمار في أجزاء مختلفة من العالم . يؤكد العمل في هذا السياق على الطبيعة السياقية للاستعمار ويستكشف ما أسمته جين جاكوبس (1996) "سياسة "الحافة"" (التأثير التخريبي للهامش على الممارسات المركزية لترسيم الحدود المكانية ، وسياسات ما

بعد الاستعمارية المتضاربة في بلدان مثل أستراليا). إن قسماً كبيراً من هذه الأدبيات يعالج الاستعمار كونه علاقة بين ذاتية (وإن كانت غير متكافئة) المجموعات المستعمرة والمستعمرة ، ويؤكد على الحاجة إلى التمييز بين الرؤى الإمبريالية الأوروبية والوطنية ، والمنطق المختلف للقوة المكرس في التشكيلات الاستعمارية الاستيطانية والتابعة . كما أن قسماً كبيراً منها يهتم بالطرق التي تم التعبير بها عن القوى العالمية والمتطلبات المحلية في صنع جغرافيات تاريخية معينة ، وكيف تعمل المعضلات ما بعد الاستعمارية المحددة على تأطير الأسئلة التي تُطرح حول الماضي الاستعماري والنظريات ما بعد الاستعمار المستخدمة (ينظر كراش، 1994).

إن الدراسات التي ركزت على المناطق الجغرافية الاستعمارية تجنبت أي رؤية جوهرية للقوة الغربية أو الوكالة الأصلية ، ويظهر العديد منها أن الخطابات الاستعمارية كانت منحرفة ومخربة بسبب وضعها المادي في المستعمرات . لقد أظهر آلان ليستر (1998) كيف تشكلت الخطابات البريطانية حول جنوب أفريقيا من خلال الرؤى المتنافسة للمسؤولين الاستعماريين ، والعاملين في المجال الإنساني ، والمستوطنين ، والأنواع المختلفة من المساحات والجغرافيات المتضاربة التي خلقوها – البعثات ، والمحطات ، والمزارع ، ومساحات الحكومة للسيطرة ، والمساحات الاجتماعية للفصل العنصري . وأحد الموضوعات الرئيسية لعملي حول الاتصال بين السكان الأصليين والغرب في إن ما يميز شمال غرب المحيط الهادئ في نهاية القرن الثامن عشر هو أن المستكشفين والتجار الغربيين والسياسيين والخبراء الحضريين الذين حولوا الفضاء الأصلي إلى أرض إمبراطورية تعاملوا مع السكان الأصليين بطرق مختلفة بشكل ملحوظ (كلايتون، 2000أ).

إن العمل التاريخي حول جغرافيات الاستعمار يحتوي على بعض الأفكار الغنية التي تم تطويرها تجريبياً حول التهجين الاستعماري والتناقض والقلق (ثلاثة مجازات رئيسية لما بعد الاستعمار). ويزعم الجغرافيون أن هذه الديناميكيات تنبع من البراجماتية الفوضوية للاتصال الثقافي بقدر ما تنبع من التناقضات المتأصلة في الاستعمار (مثل **حاجة المستعمر إلى "تمدين" الآخرين مع الحفاظ عليهم في اختلاف دائم**). إن هذا الجسم المتناثر من العمل الجغرافي حول المناطق الاستعمارية المختلفة يكمل أيضًا فكرة ما بعد الاستعمار - التي عبر عنها بقوة براكاش (1996) - بأن المشاريع الإمبراطورية أصبحت متوقفة إلى حد ما عندما غادرت الفضاء الحضري ودخلت في اتصال مع شعوب وبيئات غريبة . يُظهر الجغرافيون أن التوسع الإمبراطوري كان بمثابة بداية لتفاعلات متنوعة وغير متوقعة غالبًا بين "أوروبا" والبيئة الطبيعية والشعوب الأصلية ، ويزعمون أن الاهتمام التقليدي للجغرافي بالارتباطات بين الأرض والحياة يجب أن يقع في قلب الدراسات الجغرافية للاستعمار (ينظر هاريس، 2002؛ سلويتر، 2001).

وكما تشير هذه الملاحظات ، فإن العمل على جغرافيات الاستعمار يثير أسئلة صعبة حول ما إذا كان من الممكن التعميم بشأن الاستعمار والإمبراطورية من الناحية الجغرافية (وما إذا كان الجغرافيون يريدون القيام بذلك) ، وحول الوزن النسبي الذي يجب أن نعطيه لقوة التمثيلات الغربية للناس والأراضي مقارنة بالأشكال المادية والمجسدة للتأكيد الإمبراطوري والنزع الاستعماري الذي شمل الشعوب الأصلية . لقد زعمت أنه يجب علينا أن نفكر في كيفية ارتباط الأماكن الخاصة ودوائر الاتصال المحلية بالتصورات العالمية والشبكات والتدفقات للإمبراطورية ، وتطوير جغرافيات متعددة المقاييس لهذه الروابط المحلية والعالمية التي تفسر التفاعل بين "المادي" و "الخطابي".

باختصار، هذه هي الطريقة التي ظهرت بها أسئلة الاستعمار والإمبراطورية في الجغرافيا على مدى السنوات العشر الماضية . لدينا مركز أكاديمي عازم على إبعاد المركز عن المركز، من ناحية ، ومن ناحية أخرى مجموعة من الدراسات الجغرافية التي تهتم بالجغرافيات المتعددة للاستعمار . وهذان التوجهان ليسا

قطبين منفصلين . فالدراسات الجغرافية للماضي الإمبراطوري / الاستعماري لها مسارات نقدية متعددة ، وهناك تلقيح متبادل بين الموضوعات الفرعية التي حددتها . وكانت هناك أيضًا بعض المحاولات المثيرة للإعجاب - وأعتقد بشكل خاص ، من أعمال جين جاكوبس (1996)، وجوناثان كراش (1994) وآلان ليستر (2001) - لدمج أجندات التخصصات الحضرية و"الحافة" الاستعمارية في مجال تحليلي موحد واستكشاف التوترات بينهما.

ولكن إذا كانت محاولتي هنا ، من أجل الراحة إلى حد كبير، لرسم تمييز بين العمل عن إمبراطورية الجغرافيا والجغرافيات الاستعمارية لها أية قيمة ، فذلك لأن من المهم أن نفكر في الكيفية التي يضع بها الجغرافيون أنفسهم في علاقة بالاستعمار والإمبراطورية . وإذا كنا ، كما يصر جريجوري ، "مخلوقات ومبدعين للمعارف الموضوعية" (1998: 57)، فيجب أن نفكر في إنتاج وسياسات الموقفية . تعلمنا نظرية ما بعد الاستعمار أن نؤرخ عملنا بالإشارة إلى موقع (مواقع) إنتاجه ، وأن نفكر في جغرافياتنا للعمل الفكري ، وأن نظل منتبهين لتداعيات أفعالنا التفسيرية .

وهذه هي مسألة الموقفية التي سأتناولها الآن بشكل أكثر مباشرة ، بدءًا ببعض الأسئلة حول **الأهداف النقدية للجغرافيين** ، والانتقال إلى مشاركتهم المزعجة مع أصوات أخرى . مأزق الجغرافيين في مرحلة ما بعد الاستعمار إبعاد الغرب عن مركزية الجغرافيا وإلغاء الاستعمار ماذا ينبغي لنا أن نفعل إزاء الاجتهاد الذي يبذله الجغرافيون في استخراج صور شاقة للشعوب والأماكن الأجنبية ؟ هل يعارضون الصور والخطابات التي من الأفضل أن تُترَك في الماضي ، أم تلك التي تحتاج إلى التفكيك والتحدي لأنها تؤثر على الحاضر؟ هل العمل على إمبراطورية الجغرافيا يهدف إلى تشكيل نوع من التنوير للتخصص ؟ هل يوثق الجغرافيون ماضيًا ضارًا في التخصص من أجل إثبات أننا نفعل الأشياء بشكل مختلف ؟ هل يحاولون تحديد معاصرة التخصص من خلال جعل أنماط التحليل الجغرافي التي تأتي من فترات أخرى موجودة في الوقت نفسه (في أبحاثنا وتدريسنا) ولكنها تظل في عوالم أخلاقية وسياسية معرفية مختلفة ؟ لقد أثار الجغرافيون هذه الأسئلة وغيرها من الأسئلة الحاسمة حول مساعيهم النقدية ، ولكن بشكل متقطع ، وإجاباتهم عنها بعيدة كل البعد عن التجانس وفي بعض النواحي متناقضة .

على سبيل المثال ، اتُهم ديفيد ليفينغستون (1998: 15) بتعزيز العنصرية من خلال إعادة تقديم صور العرق في كتاباته . ويقول إنه يجد هذه التهمة محيرة ، لأنه يرى عمله كمحاولة لتوضيح "المصادر الفكرية للعنصرية" ، ولكن هذا الخلاف حول سياسات التمثيل ما بعد الاستعمار يفتح الباب أمام عددا من القضايا المهمة . تستعرض جين جاكوبس القلق السائد على نطاق واسع الذي مفاده أنه "على الرغم من ميول ما بعد الاستعمارية" ، فإن العمل المراجعي للماضي الإمبريالي / الاستعماري "يعيد نقش سلطة الأحداث والشبكات والأشخاص الذين يسعى إلى إبعادهم عن مركزيتهم وتنقيحهم" (2001: 730). وهو يفعل ذلك بطرق عدة ، لكن نيكولاس توماس يزعم أن العمل على الخطابات والتمثيلات الاستعمارية يشكل مشكلة خاصة لأنه غالبًا ما يمنح سلطة النقش على الممارسات المادية ويصور المفاهيم والرؤى الغربية على أنها "محصنة ضد العلامات النشطة أو إعادة الصياغة من قبل "الآخر "(1993 :3، 105).

يقودنا هذا إلى قلق ذي صلة : وهو أن الكثير من الأعمال ما بعد الاستعمار داخل (وخارج) الجغرافيا التي تسعى إلى التعرف على مواقف الموضوع للمستعمر تظل عالقة في قالب أوروبي مركزي . لقد انتقدت ماري لويز برات الأعمال الحديثة في مجال كتابة الرحلات بسبب تركيزها على التجربة الأوروبية . وتشكو من أن تجربة السفر "تتم دراستها من داخل الخيال الذي يركز على الذات والذي أطر الرحلات وكتب السفر

في المقام الأول" (2001: 280) . وتظل الحساسيات الأوروبية ذات أهمية جوهرية ، وفي حين يتم استكشاف أفكار التفاوض الثقافي من حيث المنهجية ، إلا أنها نادراً ما يتم متابعتها بعمق جوهري كبير .

إن العلماء الذين يعملون في هذا المجال يعلموننا الكثير عن كيفية "إعداد" الأوروبيين للأماكن الأجنبية للتفتيش والاستهلاك الإمبراطوري ، وكيف تم إعادة التفاوض على الهويات عندما سافر الأوروبيون من هنا إلى هناك وأعادوا صياغة التمييز بين "الوطن" و"البعيد" ، وعن الضغوط التي تنطوي عليها . ولكن هذا الأدب يخبرنا أقل بكثير عن الشعوب والأماكن غير الأوروبية التي من المفترض أنها تسللت ومزقت الذات الأوروبية السيادية والموضوع الإمبراطوري . ونحن نتعلم الكثير عن الكيفية التي تصور بها الأوروبيون الآخر والبعيد ، ولكننا نتعلم أقل كثيراً عن كيفية عمل ترتيب الأماكن في المفاوضات مع الأماكن والشعوب الأخرى نفسها .

إن هذا التعلق ـ إن كان كذلك ـ ليس مضللاً في حد ذاته . بل إنه لا يصبح إلا سبباً للخلاف النقدي عندما يزعم الباحثون العاملون بهذه الطريقة أنهم يعملون أيضاً على إبراز وجهات نظر المستعمرين وآثارهم بصورة أكثر وضوحاً . وقد استجاب نقاد ما بعد الاستعمار لهذه الاتهامات ـ أو على الأقل خففوا من حدتها ـ بزعم أن "جهازهم النقدي لا يتمتع بمسافة شاملة عن التاريخ الاستعماري ، بل إنه موجود في أعقاب الاستعمار، أو بعده ـ بعد أن عمل الاستعمار على إصلاحه . والنقد الذي يتشكل في أعقاب الاستعمار يعترف بأنه يسكن هياكل الهيمنة الغربية التي يسعى إلى إبطالها" (براكاش، 1994: 1475).

إن العادات الأوروبية المركزية وفئات الفكر تشكل جزءًا كبيرًا من هذه العواقب ، كما يزعم براكاش ، ونحن بحاجة إلى التشكيك في "الوهم المريح" القائل بوجود موقف نقدي خارج التكوينات التاريخية للاستعمار والذي سينشأ عنه مستقبل ما بعد الاستعمار (أو تخصص منزوع الاستعمار) . لن نجد منظورًا "أصليًا" حقيقيًا أو أصيلاً غير ملوث بتجربة الاستعمار، أو نظرة عالمية أوروبية خالدة أو موحدة يمكن تفكيكها . يصر براكاش (1996) على أننا ننتقد الاستعمار في وسائل الإعلام من داخل قصة لم تنته بعد ، ويشير بيل أشكروفت إلى أن "المشكلة الأكثر صعوبة التي تواجه الدول ما بعد الاستعمار اليوم هي (ما زالت) تحدي إعادة بناء المؤسسات والممارسات الموروثة بطريقة تلتزم بمتطلبات المعارف المحلية ، وتستفيد من فوائد الممارسات المحلية ، وتحافظ على سلامة التمثيل الذاتي" (2000: 23).

ويطرح جريجوري (1998) أيضًا هذا النوع من النقاط ، حيث يقترح أنه يمكننا بسهولة الوقوع في افتراض أن المعارف والممارسات الجغرافية التي نضعها تحت دائرة الضوء النقدية تنتمي إلى الماضي . لقد كان العمل التاريخي الذي تناول جغرافيات الاستعمار والإمبراطورية ، سواء كان ذلك العمل متديناً أو غير متعمد ، فعالاً في الكشف عن أن التمثيلات المهينة والمهيمنة للآخر ما تزال حية في الخيال الثقافي والجغرافي الغربي ، وأن "الجاذبية القاتلة للحنين الاستعماري [للمشاهد الخالدة" والنوافذ المطلة على العوالم "القديمة" مثل مصر] محفورة في أشكال معاصرة من السفر" (جريجوري، 2001ج: 113). وقد تم تقديم ادعاءات مماثلة حول الاقتصاد السياسي للحنين الاستعماري (تداخل الثروة والاستقرار والإمبراطورية). ومن بين أمور أخرى (مروعة) ، تسلط الأحداث المأساوية الأخيرة في أمريكا الضوء على القوة الدائمة للجغرافيات الخيالية ، المشبعة بالرمزية الإمبراطورية ، والتي تنزلق فوق تعقيدات الاختلاف الثقافي وتصطدم بها .

إن مثل هذه الأفكار تعمل على شحذ الحد السياسي للأعمال "النقدية" حول الإمبراطورية والتي كتبت من قلب المناطق الحضرية النظرية لهذا التخصص ، ويرى الجغرافيون مثل جريجوري بحق أن أعمالهم بمثابة نقد للحاضر . ولكن الأسئلة ما تزال قائمة حول الأهداف النقدية للجغرافيين . على سبيل المثال ، يعتقد كلايف بارنيت أن "قيمة التاريخ في التأريخ النسبي للجغرافيا ما تزال غير مشكوك فيها إلى حد كبير" (1995:

.(414 ويقترح أن العمل على الماضي الإمبراطوري / الاستعماري أصبح شائعًا ليس لأنه له تأثير بالضرورة على حاضر الجغرافيا ولكن لأنه "ساحة ملائمة حيث نتمكن من التدرب مع "أنواع مختلفة من النظرية الصعبة" . ويتساءل المرء أيضًا عن المدى الذي يساعد به العمل الجغرافي على الماضي الإمبراطوري / الاستعماري الأشخاص ما بعد الاستعمار على التعامل مع "الفجوات والشقوق في حالتهم" . لا شك أن دراسات إمبراطورية الجغرافيا تعمل على إبعاد الفكر الجغرافي عن مركزه ، وقد تشبع عطش ما بعد البنيوية للتعددية والتشتت ، وقد تساعد حتى في تحسين الجغرافيا وعلاجها للجغرافيين . ولكن بأي طريقة تعد هذه الدراسات ما بعد الاستعمار؟

ومن الجدير بالذكر أن محاولات الجغرافيين لإسناد مسافة حرجة بين "ذلك الحين" و"الآن" تعمل وفقًا لضوء تاريخي مختلف عن الضوء الذي يوجه العمل ما بعد الاستعمار في بلدان مثل الهند . ففي الهند على وجه الخصوص ، يزعم بارثا تشاترجي ، حيث يتم تذكير الناس يوميًا بخضوعهم ، "إن الحاضر هو بالضبط ما نشعر بأننا يجب أن نهرب منه" ، و"إن رغبتنا في أن نكون مستقلين ومبدعين تنتقل إلى ماضينا" (1997: 281) . وعلى النقيض من ذلك ، في الفكر الأوروبي ما بعد التنوير، يُنظر إلى الحاضر كونه موقعًا للهروب من الماضي . "وهذا يجعل طريقة تعاملنا [الهندي] مع الحداثة مختلفة جذريًا عن الأنماط التاريخية المتطورة للحداثة الغربية" . وكما يشير، فإن العمل ما بعد الاستعمار الذي يتجذر في تجربة الخضوع من المرجح أن يكون مختلفًا عن ذلك الذي ينبع من الشعور بالذنب ، أو الظلم التاريخي ، أو ما شابه ذلك . لا ينبغي لنا أن نفكر في النوع الأول من العمل ما بعد الاستعمار كونه أكثر استعمارية حقًا من النوع الثاني . بل إن وجهة نظري هي أننا لا نستطيع أن نتحدث عن التاريخ الإمبراطوري / الاستعماري دون أن نفكر في المواقع (الأكاديمية والفكرية والثقافية والجغرافية) التي ننطلق منها لتأريخ استثماراتنا في الماضي وأنثروبولوجيا استثماراتنا في الآخر .

الأصوات الأخرى والجغرافيات الأصلية

دعونا ننتقل الآن إلى عقدة معينة من الأسئلة داخل هذا النسيج النقدي – أسئلة الآخرية . كانت هناك موجة من الأعمال التي قام بها الجغرافيون حول عمليات الآخرية ، ولكن القليل منها يتعمق بعمق في علاقة الناقد بالآخر (ينظر ستوم، 2000). إن تحليل الخطاب الاستعماري في الجغرافيا ، مثله في ذلك كمثل التحليل في التخصصات الأخرى ، غالبًا ما يعمل على مسافة كبيرة من موضوعات خطابه –الآخرين . من الصعب الوصول إلى الجانب "الأصلي" من القصة من أرشيفات غير متوازنة تمامًا لا تقدم المعرفة عن "هم" وفقًا لشروطهم . لكن الجغرافيين يزيدون من تفاقم هذه المشاكل من خلال التركيز حصريًا على السجل التاريخي الأبيض / الغربي . غالبًا ما تعمل الدراسات الجغرافية التي تتصور اللقاءات الاستعمارية على أنها متفاوض عليها ، أو واقعة ، أو بينية ، أو متنازع عليها أو مُثقلة بالقلق بشكل أفضل كثيرًا في النظرية من الممارسة .

في مقال عن "المسافرات البريطانيات وتشكيلات الاختلاف العنصري عبر الغرب الأميركي في القرن التاسع عشر" ، ربطت كارين مورين (1998) بين لقاءات المسافرين مع الأميركيين الأصليين وتمثيلاتهم وبين الخطابات الاستعمارية الجنسانية ، وحاولت "إخراج" مثل هذه الخطابات عن مركزها من خلال التفكير في "العلاقات الاجتماعية المتأصلة في مناطق الاتصال المتعددة [في هذه الحالة ، محطات السكك الحديدية بشكل أساسي] التي جرت فيها اللقاءات" . ومثل العديد من الدراسات المماثلة الأخرى ، فإن تحليل النصوص والتمثيلات متطور من الناحية المفاهيمية ، ولكن فكرة أن الخطابات الاستعمارية تستجيب

لضغوط وتوترات منطقة الاتصال ـ وجهة نظر توماس ـ تتلاشى لأن الآخر يُنظَر إليه فقط من خلال مرشحات السجل الأبيض / الغربي .

إن الهدف هنا ليس إفراد مقال مورين بالنقد ، بل الإشارة إلى أنه يشير إلى مشكلة تفسيرية واسعة النطاق في الأدبيات الجغرافية (وما بعد الاستعمارية بشكل عام) : وهي أن التعامل مع الآخرية يتم من خلال الضغط الحاسم للخطابات الغربية . فالعالم الاستعماري يتم تفكيكه وفقًا لكلمة الغرب . ويواجه بعض الجغرافيين هذه المشكلة بالتراجع عن تحليل الوكالة الأصلية (بعدم محاولة التحدث نيابة عن الآخر) والالتزام بمهمة إظهار كيفية تجميع المعارف السائدة . ولكن مثل هذه الخطوط المختصرة من الاستقصاء قد تكون لها ثمن . فقد يضفون طابعًا رومانسيًا على الآخر، أو يتوصلون إلى افتراضات خاطئة حول كيفية استجابة السكان الأصليين للوافدين الجدد . إن عدم وجود أي شهادة "أصلية" يمكن الاستناد إليها ، يجعل من الممكن جعل الإمبريالية والاستعمار يبدوان متزمتين للغاية (وبالتالي يبالغان في تقدير قوة الغرب) أو مفرطين في القلق (وبالتالي يبالغان في تضخيم وكالة الناقد الذي يختار أن يرى هذه السمة في السجل الاستعماري ، أو يختار مساواة المعرفة بالقوة) .

إن الكثير من الأعمال التي تمر على أنها ما بعد استعمارية في مجال الجغرافيا تتوقف على المحن والشدائد التي واجهها المستعمرون في أماكن أخرى بدلاً من التركيز على الخطوط الفاصلة بين الأشخاص في منطقة الاتصال المعنية . تشير بريندا يوه (2000) إلى أن العمل على الجغرافيا التاريخية للاستعمار يطغى على المهمة الصعبة ولكن الحاسمة المتمثلة في الكشف عن "الجغرافيات التاريخية للعالم المستعمر". ورغم صعوبة الأمر واستهلاكه للوقت (وهو ما لا يرغب الأكاديميون الذين يتعرضون لضغوط لنشره بسرعة) في سماعه ، فإنها تزعم أنه من الأهمية بمكان أن يكمل الجغرافيون عملهم الهدام في "المركز" (وفيه) بأبحاث حول (وعلى) هوامش الإمبراطورية ووكالات المستعمرين . وتفعل يوه هذا في عملها عن سنغافورة الاستعمارية ، وهناك العديد من الأمثلة على ذلك .

لقد استخدمت العديد من المصادر التاريخية والجغرافية التي تتناول أجندات السكان الأصليين وتحاول الاستماع إلى الآخرين . لقد استخدمت السجلات الأثرية والإثنوغرافية بالإضافة إلى المصادر التاريخية لاستكشاف كيف قامت مجموعات السكان الأصليين - نو-تشاه - نولث - في جزيرة فانكوفر بدمج تجار الفراء البريطانيين والأمريكيين في صراعاتهم واستراتيجياتهم الاستعمارية وأنظمة العالم (كلايتون، 2000أ) . في منطقة الاتصال هذه (وأشك في مناطق أخرى) ، لم يشعر السكان الأصليون بأي شيء سوى أنهم مملوكون أو أدنى من الغربيين خلال السنوات الأولى من الاتصال . في الوقت نفسه ، فإن القصة التي أرويها عن المنافسة القبلية الأصلية والصراع والتغيير الإقليمي لا تتفق مع صور الهندي البيئي الذي يعيش في وئام مع الطبيعة وجيرانه ، وفي الأراضي التقليدية منذ زمن سحيق ، والتي لعبت دورًا مهمًا في التعاطف الليبرالي الأبيض مع القضايا الأصلية (نوع من الرومانسية) والدفاع عن مطالبات الأراضي الأصلية في المحاكم (نوع من الجوهرية الاستراتيجية) .

تثير تجربتي مخاوف أكثر عمومية . قد يجد الجغرافيون البشريون النقديون أصواتًا أخرى ويبدأون في تصحيح التحيزات والمحو في التأريخ الاستعماري ، ولكن إلى أي مدى يمكنهم الذهاب معهم ، خاصة إذا كانوا يحملون وجهة نظر مفادها أن جميع الأصوات والهويات والسرديات هي إنشاءات (خيالية) من نوع ما ؟ هل تطبق مجموعة من تقنيات التفكيك على السجل الأبيض ، ومجموعة أخرى على السجل الأصلي ؟ وإذا طبقت نفس المجموعة على السجلين ، فهل من المحتمل أن تقلل من قدرتك على إزالة الاستعمار من التاريخ ؟ لا توجد إجابات بسيطة لمثل هذه الأسئلة المتعلقة بالنزاهة النظرية .

يواجه الجغرافيون النقديون خطر إخضاع الأصوات الأخرى للقواعد والأعراف العلمانية للخطاب الأكاديمي الغربي (للمعايير العقلانية بشأن استخدام الأدلة التي تدعم العلوم الاجتماعية والإنسانية) . ويشير بارنيت إلى أن العديد من المحاولات لاستعادة الأصوات المستبعدة حتى الآن إلى رواياتنا ما تزال تتوافق مع نموذج غربي للتمثيل والنقد الذي "يبني النصوص على أنها تحتوي على" أصوات "مختبئة داخلها تنتظر إعادة صياغتها من خلال وسيلة الناقد" (1997: 145) . إن هذا النموذج "يُنْشِئُ نصية استعمارية داخل اقتصاد تقليدي تمامًا للمعنى ينسب إلى الصوت والكلام قيم التعبير والحضور الذاتي والوعي ، ويفهم غياب علامات مثل "الصمت" كونه غيابًا لا يطاق للصوت ، وبالتالي يعده علامة على التمكين ". وقد علمتنا المناقشات ما بعد الاستعمارية حول الخطاب التاريخي أن التاريخ الأكاديمي يسير على خط رفيع بين إعادة كتابة التاريخ من وجهات نظر "أخرى" والشوق إلى الأشياء المفقودة - لعالم غير متجانس جذريًا و/أو إثنوغرافيا استعمارية معاصرة (ينظر شاكرابارتي، 2000).

وأخيرًا ، وكما يظهر الكثير من هذه المناقشة ، فإن "الجغرافيات الإمبريالية والاستعمارية النقدية" هي هياكل فكرية متورطة في بناء الأشياء التي تدركها . إن العمل الذي يجد موطئ قدم له من خلال "إزاحة" و"مقاطعة" و"تقويض" المعارف المهينة والمهيمنة يستند إلى فهم رجعي للعلاقات بين المعرفة والقوة والجغرافيا . ويعمل هذا العمل ، جزئيًا ، من خلال جاذبية الجغرافيات الإمبريالية / الاستعمارية التي يخلقها ويستحضرها - من خلال قدرته على إخراجنا من الرضا عن الذات ، وكشف ونقد الأفكار التي لم نكن نراها من قبل والتي كانت تعد أمرًا مسلمًا به (ينظر جاكوبس، 2000). ويتم تقديم القوة والهيمنة كونهما قوالب حقيقية جزئيًا وخيالية جزئيًا يرسم عليها الجغرافيون التزامهم النقدي بما بعد الاستعمار .

إن إحدى المشاكل الأساسية التي تعيب محاولات ما بعد الاستعمار لتعزيز فهم الاختلاف (كتنوع ، وتعدد ، واختلاف) هي أنها قد تعمل أيضاً على توحيد فهم التشابه ـ أو ترجمة تاريخ الآخر إلى تاريخ الشيء نفسه . ويكتب الجغرافيون عن استعمار الجغرافيات ، وتطبيع الخطابات ، والتخيلات الخبيثة من أجل تفكيكها ، ويعتمدون إلى حد ما على مثل هذه الصور الموحدة لما كان الاستعمار على وشك أن يصبح عليه الأمر ـ لجعل انتقاداتهم تنجح . وهم يعتمدون على الكلمات القوية التي تمكنهم من القيام بإيماءات نقدية قوية ، ونحن بحاجة إلى التفكير في ما فقدناه وما اكتسبناه عندما يرون الاستعمار ككل (على سبيل المثال كنظام للعنف المعرفي) أو مشروعاً متناقضاً ومخترقاً للسلطة بطبيعته .

في مقال حول أفكار سعيد عن دور المثقف ، يلاحظ بروس روبنز (1998) أن نماذج النقد المعارض الشامل أو الديمقراطي الذي يتحدى السلطة في أشكالها المتعددة تعتمد على عمليات "التخلخل الفكري" . إن السلطة الفكرية النقدية فيما يتعلق بقضايا الإقصاء والتهميش ، والهيمنة ، تنبع من "الندرة أو الندرة المفترضة لأولئك الذين يرغبون في مواجهة السلطة غير الفكرية" . ويزعم روبنز أن تقييد هذه المجموعة هو الذي يمنحها شرعيتها الأخلاقية والسياسية ، وأن "الندرة الأخلاقية التي تحددها المعارضة لن تكون قابلة للتمييز عن الندرة الاجتماعية التي تشكل مصدرًا محتملًا للربح والهيبة" . والمثقف الذي يعكس سلطة السلطة بأمانة يعتمد على هذه السلطة ويقدرها . وبعبارة أخرى ، فإن الجغرافيين البشريين النقديين ، مثل المثقفين ما بعد الاستعمار ، لديهم استثمار معين في تنمية أسئلة الاختلاف والقوة ، وتنمية ندرتهم الخاصة ، إذا صح التعبير، فضلاً عن تحدي إرث الاستعمار.

الخاتمة

لا يمكن أن يكون هناك ملخص بسيط لفصل مثل هذا ، والذي يمتد على مساحة نقدية واسعة . ولكنني سأنهي بثلاث نقاط - اثنتان منها مستمدة من الأدب ونقطة أخيرة من عندي . **أولاً**، يلاحظ بارنز وغريغوري أن العمل على جغرافيات الاستعمار والامبراطورية له مصلحة مركزية في "عالمية الجغرافيا البشرية" (1997: 14-23). هذا النطاق من العمل يتحدى الرأي القائل بأن الجغرافيا هي مجال دراسة قادر على إنتاج مجموعة محايدة ومستقلة من المعرفة . إن التواريخ المتشابكة للجغرافيا والامبراطورية التي يتم استكشافها حاليًا تؤكد على فكرة أن الجغرافيين يتم تربيتهم في تخصص وخطاب "تكون افتراضاتهم ومفاهيمهم وطرق عملهم دائمًا وفي كل مكان مرتبطة بشبكات مادية من القوة" . الجغرافيا ليست مجرد طريقة لإيجاد النظام في العالم ؛ إنها أيضًا تتعلق بخلق النظام والسيطرة عليه .

ثانياً، يقترح ليفينغستون أن العمل على "الجغرافيات التاريخية في الجغرافيا" "يجعل تعريفنا للجغرافيا نسبيًا" ، و"يجعل مفهومنا للجغرافيا أكثر تعددية" ، ويدفعنا إلى "إضفاء طابع خاص على ممارستنا للجغرافيا" (2000أ: 7). نحن نعترف بأن "ما هية الجغرافيا لا يمكن اكتشافه بمعزل عن ظروف صنعها" في أوقات وأماكن مختلفة ، ونحن "نعترف الآن ، بل ونحتفل ، باستحالة وضع خصوصيتنا جانبًا في المشاريع المعرفية والعملية" . لقد وقعنا في فخ "الانتقام من الوضع" ، وما بعد الاستعمار هو أحد مظاهره الرئيسية . والواقع أن هناك القليل من الدلائل على أن نطاق العمل الذي نستعرضه هنا سوف يُنتقص من شأنه نوع من النثر الجغرافي لمكافحة التمرد الذي يعيد النظام والموضوعية إلى أبحاث وكتابات الجغرافيين . لا شك أن العمل الجغرافي التاريخي الصريح حول المسائل التي تتعلق بفترة ما بعد الاستعمار سوف يستمر في النمو والتغير، جزئيًا مع تغير المجال الأوسع للدراسات التي تتناول فترة ما بعد الاستعمار، ولكن من غير المرجح أن يتم إزاحته عن المناقشات حول تاريخية الجغرافيا البشرية أو سياساتها الثقافية .

و**ثالثًا**، هناك مشاكل واضحة في هذا الأدب . ففي رأيي ، وكما لاحظ هول(1996 :249) حول فترة ما بعد الاستعمار بشكل عام ، فإن نزول الجغرافيين إلى الخطاب والتركيز على إمبراطورية الجغرافيا يمكن أن يصبح بسهولة ذريعة للعمل التفكيكي الذي يقع في فخ الافتراض بأن النقد النظري للجوهر يستلزم بالضرورة إزاحته سياسيًا ، ويتجاوز بمعنى ما عالم ما بعد الاستعمار خارج أوروبا تمامًا .

إن نقد الاستعمار يمكن أن يصبح هواية فكرية غربية مغرية ولكنها معقمة قد تخدم الاحتياجات المهنية للأكاديميين المعارضين الذين ، كما لاحظ ديفيد سكوت (1999)، يعانون من فقدان الأهداف السياسية المألوفة والمستقرة - ولكن هذا لا يتصل بالكاد بالمحن العملية للشعوب والأماكن المستعمرة سابقًا . لا يعني هذا أن العمل على مشاكل ما بعد الاستعمار "الحقيقية" أفضل من العمل الذي يفكك الإمبراطورية من أجنحتها الحضرية التخصصية . لكنني أريد أن أنهي بالدعوة إلى المزيد من الحوار بين الجغرافيين الذين يعملون ضمن التوجهات المختلفة التي تم تحديدها أعلاه ، والجغرافيين الذين يعملون في أجزاء مختلفة من العالم.